الفصل السابـع
يوسف وغياهب الجب وظلمات السجن

عندما أجتمع أخوة يوسف على أن يلقوا به في غياهب الجب وانقطعت في قلوبهم شرايين الرحمة؛فماتت تلك القلوب ، ولم تعد تنبض بالحياة. يستغيث بهم أخيهم ؛ طالبا النجاة ، ولكنهم راحوا دون أن يلتفتوا إليه ،فوجد يوسف نفسه ملقى في البئر وحيداً، حيث الظلام والوحشة والخوف،وظل ينادي بأعلى صوت إخوتي لا تتركوني وحيدًا ،وترددت أصداء صوته في الجب،و لكن أحداً لم يجبه، فقد ولى الأخوة الحاقدون بعيداً وتركوه. بلا أنيس، ولا طوق نجاة

وفجأة وكأن البئر أشرقت بالنور السماوي سمع يوسف صوتاً يناديه ويحدثه، يا يوسف كف عن هذا، وتلفّت يوسف فإذا الجب مشرق ومضيء وإذا بالطمأنينة تملأ نفسه،أنه جبريل عليه السلام مرسلا له من ربه ليطمئن قلبه فى وحشته ويقول :يا يوسف استعن بالله اشتغل بالدعاء إليه الله والتضرع إليه. وأدرك يوسف وقتها أن جبريل خاطبه ليعلمه درساً في مواجهة المصائب والشدائد التي لم يذق يوسف منها من قبل شيئاً. لقد أفهمه جبريل أنه يجب أن يلجأ عند المصيبة إلى الله أولاً، ولا يسأل سواه، فالله وحده هو القادر على كشف الضر عنه.

" أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ".(٦٢)النمل

وما أشد الضر الذي كان فيه يوسف، وظل يدعو الله أن ينجيه من غياهب الجب

ومكث يوسف ينتظر رحمة ربه، وقد اطمأن بعد الدعاء قلبه، وعند الصباح أنفرج الضيق وتسلل النور لغياهب الظلام، وجاء فرج الله وسُمِع نداء قلب يوسف من رب الرحمة ،ويصور القرآن هذا الموقف العظيم فى روعة تهز القلوب من عظمة رحمة الله بعباده المؤمنين.

"وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)يوسف

وها هي رحمة الله تقترب، فتهبط على يوسف إذ اقترب الدلو منه فتعلق به يوسف

رفع الوارد دلوه من الجب بقوة، وحين رأى يوسف متعلقاً به، فوجئ بما رأى أول الأمر لكنه سرعان ما فرح لرؤية هذا الغلام الجميل مشرق الوجه وهو يتعلق بالدلو فنادى الوارد أصحابه والفرح يملأ قلبه وصاح: (يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ).يوسف

فأقبل أصحابه نحوه مستبشرين ثم اتفقوا على أن يخفوا أمر هذا الغلام عن بقية أفراد القافلة خوفاً من أن يشاركوهم فيه إذا علموا بالخبر (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)يوسف

وكل هذا الذي حدث ليوسف إنما هو بتقدير الله سبحانه وبتدبيره (وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) يوسف ،فهو سبحانه يعلم بما دبره أخوة يوسف من الكيد له، وهو يعلم بإنقاذ يوسف من قبل الوارد وإخفائه ليبيعه عبداً في مصر، فالأحداث تجري هكذا على أيدي هؤلاء ولكنهم لا يعلمون أن شأن هذا الغلام سيكون عظيم ،فقد أتاه الله الحكم والعلم لما بلغ أشده فهذا جزاء المحسنين ،ولكن لم تنتهي الابتلاءات بيوسف هنا، ولكن تمر السنون ويدخل يوسف لغياهب لا تقل ظلمة عن غياهب الجب في وحشته هي غياهب الظلم نعم سجنوه رغم براءته سجنوه بريئاً، بل سجنوه بعد أن شهدوا كلهم ببراءته، شهد العزيز وامرأته وابن عمها ونسوة المدينة شهدن ببراءته كذلك، وكانت محنة السجن هي آخر المحن التي ابتلى الله بها عبده ونبيه يوسف... وقد سجنوه ولم يحددوا مدة لسجنه بل قالوا"حَتَّى حِينٍ (٣٥)يوسف

ومع يوسف دخل إيمانه العميق السجن فأناره، ودخلت معه أخلاقه الكريمة السجن؛ ففاضت على السجناء بالرحمة، ومعه دخل الصبر الجميل يتقوى به على احتمال قسوة السجن ومرارته ووحشته، وكان قلب يوسف مطمئن برحمة الله ونصرته له رغم هذا الظلم المبين.

كان السجن هو مكان الخلاص الوحيد ليوسف من إغراء امرأة العزيز ونسوة المدينة، ولو وجد مكاناً غيره لاختاره، وقد فضل السجن ما يدعونه إليه ،حيث قال :كما ذكر القرآن الكريم:

"قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)يوسف

في السجن لم يكن ليوسف المؤمن من نصير غير الله الذي يؤمن يوسف بأنه سيخرجه من السجن،وصحبته التي ألقى الله فى قلوبهم محبة يوسف ، وصدق الحق تعالى في قوله:

"اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"(٢٥٧)البقرة

وفي السجن نظر يوسف فرأى أنه أمام واجبات كثيرة، فالسجن مكان بائس يضم التعساء والمجرمين، ويضم بعض الأبرياء أيضاً، كيوسف نفسه، فبدأ يقوم ما يستطيع تقويمه من هؤلاء، ويعزي الأبرياء على بلواهم.. وكان يخاطب العقول والأرواح والنفوس أولًا، مثلما يعتني بالأجسام التي أثقلتها في السجن شتى الآلام، فدعا السجناء إلى توحيد الله وعبادته... وأخذ يواسي السجناء ويخفف من آلامهم فإذا مرض واحد منهم قام بتمريضه، وإذا ضاق بواحد منهم صدره، وعَظهُ يوسف وشد عزْمه، وكان في السجن أُناسٌ قد انقطع رجاؤهم،

وطال حزنهم واشتد بلاؤهم، فكان يوسف يقول لهم: (أبشروا واصبروا) فإن مع العسر يسراً كان يوسف يبث في قلوب هؤلاء نور الاطمئنان، وأن الله الذي خلقهم فهو بهم رحيم

وكان يعرفهم يوسف بنفسه وبآبائه الأنبياء، ويدعو السجناء إلى عباده الله وحده وترك الأصنام

والشرك، وتتوالى أحداث الحياة على يوسف داخل سجنه لم يقنط من رحمة ربه وكيف وهو المطمئن القلب ؟كان يوسف من الصادقين، وعلمه الله الحكمة وتأويل الأحاديث، وقد فسر يوسف لمن جاءوا يسألونه عن تفسير رؤياهم كما ورد بالذكر الحكيم

"وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)يوسف وهنا يبدأ ترتيب الأحداث التي جعلها الله أسبابا لنجاة يوسف من غياهب ظلمات الظلم ،وهي تفسير الأحلام لهذين الفتيين ، ليصدق تأويل يوسف لهم ثم تتوالى أحداث النجاة بترتيبا الهي، ورحمة من رب يوسف بهذا العبد الصالح ،حيث استيقظ ملك مصر ذلك الصباح منزعجاً ،وخائفاً فأسرع في الخروج مبكراً إلى مجلس الملك، واعتلى عرشه، وحوله كبار حاشيته، ثم جمع الكهنة، والعرافين، وقص عليهم ،رؤياه وقال :" وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) يوسف

استغرب الحاضرون لهذي الرؤيا – العجيبة الغريبة، ولكنهم اندهشوا لطلب الملك ؛أن يفسروا له رؤياه تلك التي أقلقته كل القلق ، ولكنهم عجزوا عن التفسير وقالوا

" قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)يوسف ، وهنا يفسر يوسف رؤيا الملك، وما كان تأويله إلا حقا، ونعمة له من ربه ، فاقتنع الملك بها كل الاقتناع وارتاح الارتياح كله، حين أدرك بعد تفسير رؤياه أنها رؤية عظيمة ،وخطيرة، تهم حياة شعبه وتؤثر في حياته طيلة أربعة عشر عاماً، فأمر بإحضار يوسف وقال " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)يوسف وهنا تنزل من السماء معطيات تبرئة يوسف ؛ليظهر الحق ويذهب الباطل بلا رجعة فالباطل ذهوقا.

وتنطق امرأة العزيز لتقول: ألان ظهر الحق وبان واضحا على مسمع ومرئي الجميع ، وأنَّ يوسف حقا من الصادقين، وتكتمل نعم الله على يوسف ليقول الملك

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)يوسف

أنها نعمة ربي فهو لا يضيع أجر المحسنين ،فهذا أجر الدنيا لمن اتقى فما بالك بأجر الآخرة الذي وصفه الله بأنه خير للذين آمنوا وكانوا يتقون، فهنيئاً لمن جعل لهم الله نعيم الدنيا باطمئنان قلوبهم، ورضاهم بقضاء الله وقدره خيره وشره رحمة منه ولهم في الآخرة خير النعيم انه الفوز بالدارين

"اللّهُمَّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "